الاخلاق بین النظریة و التطبیق

آیة الله جوادی آملی

اشاره

نوشتار حاضر با عنوان «الاخلاق بین النظریة و التطبیق» پیام حضرت آیة الله جوادی آملی (دام‌ظله) به همایش «أخلاقنا بین النظریة و السلوک» و در پاسخ به دعوت آقای عبدالله بن خالد آل‌خلیفه رئیس شورای عالی امور اسلامی بحرین است. این همایش سال گذشته در بحرین برگزار گردید.

الحمد لله المُتَجلّي في كتابه لتعليم النفوس و تزكيتها و الصلاة على رسوله المنعوت بالخُلُق العظيم و على آله و من اتّبعه بالقول القويم نَتَولّى مَن تولاّه الله و نَتَبرء ممّن تبرّأ منه. أمّا بعد، هذه وجيزة (الاخلاق بين النظرية و التطبيق) و لمحات من الدليل و العلاج نرجو من الله سبحانه ان يُعَلّمنا ما هو الصواب و يوفّقنا لما له الثواب.

و لنُقدَّم مقدّماتٍ و اصولاً يعتمد عليها و يركن اليها و يوثق بها لاتّضاح ما غمض في فن الاخلاق. وفيما يلي:

المقدمة الاولى: إنّ علم الاخلاق من العلوم الانسانية التي تضاربت الآراء فيه حسب تضاربها في معرفة الانسان وطبيعته وماهيته، حيث أنّ الانسان كائن خاص في المنظومة الكونية تتباين الآراء فيه مثلما تتباين في معرفة الكون، فمن ذَهَب الى أنّ كل كائنٍ مادّي محسوسٌ و انّ ما ليس بمادّي و لامحسوس فليس بكائن بل هو خرافي مهمل، فهو يتوهّم بأنّ طريق المعرفة منحصرة في الحسّ و التجربة و الانسان إنّما هو مادّي صرف يفنى بالموت جُفاءً و يُترك سدىً و انه خلق عبثاً و لا يُهلكه الاّ الدهر، يموت و يحيا و ما له مبدأ و لا معاد و من ذهب الى أنّ الكائن على قسمين مادي و مجرّد و أنّ الانسان مؤلّف من بدن مادّي و من روحٍ مجردٍ لا ينفد بالموت و لايفني به و انه يبقي بعد الموت فهو يعلم أنّ للانسان هدفاً سامياً منزّهاً عن العَبَث و أنّ له و للعالم مبدأً مجرّداً عليماً، قديراً حكيماً ليس كمثله شيءٌ و أنّ طريق المعرفة مُنشَعِبةٌ الى الحسّ و التجربة و الى العقل و التجريد.

المقدمة الثانية: إنّ الله سبحانه واحدٌ لا مثيل له و انّ اوصافه الكمالية الذاتية عين ذاته كما انها ايضاً متحدةٌ ذاتاً و ان كانت متفاوتةً مفهوماً و إنّ علمه الازلي الابدي حق قَراحٌ لا يشوبه جهلٌ ولا يعتريه سهوٌ و لا يَعْتوره نسيان و لا يعرضه تبدّلٌ و لا تحوّلٌ و انّه ربٌ للعالمين بما في ذلک الانسان و غيره و إنّ ربوبيّته باعطاء كل ذي حقٍ حقّه و بهدايته الى مقصده و بإطلاعه على مسلكه الموصل الى مقصوده و انّ هدايته للانسان هي تارةً بالهامه العقلي و اخرى بانزاله النقلي فهو سبحانه يهدي الانسان بالوحي المستكشف بالعقل تارة و بالنقل اخرى فالوحي للانبياء و المرسلين عليهم السلام و لا يعادله شيءٌ من العلوم أبداً لانه بالشهود العيني لا بالحصول المفهومي، معصوماً عن الخطأ كما انّ هؤلاء المبعوثين معصومون عن الخطيئة بخلاف غيرهم من العلماء حيث تكون علومهم بالحصول المفهومي لا الشهود العيني اولاً، مشوبةً بالسهو و الخطأ ثانياً، كما انّهم ليسوا بمعصومين عن الخطيئة ثالثاً. فالانسان ينال بالعقل البرهاني و بالسمع المعتبر ما الهمه الله و ما انزل

اليه بواسطة الانبياء و المرسلين عليهم السلام.

المقدمة الثالثة: إنّ الدين الالهي له مبدأ فاعلي واحد و له مبدأ قابلي فاردٍ و حيث إنّ اللهَ الذي هو المبدأ المفيد للدين واحدٌ لاتعدّد فيه و المبدأ المستفيد له و هي الفطرة الانسانية التي لااختلاف فيها و لاتخلّف، واحد لاكثرة فيه فلابدّ و ان يكون الدين واحداً كما قال سبحانه: ﴿**انَّ الدّينَ عِندَ اللهِ الاسلٰم**﴾ (سورة آل عمران، آية ١٩) و حيث انّ الانسان في كل عصرٍ و مصرٍ و نسلٍ له خصوصية لاتوجد في غيره فلذا جعل الله سبحانه له شرعةً و منهاجاً مختلفاً. فأصل الدين و خطوطه الجامعة و الجوهر المشترک فيها واحد لا تعدّد فيه لانّ اصل الفطرة الانسانية واحدة لاتبدّل فيها و لا تحوّل لها و شرائعه و مناهجه متعدّدة متكثرةٌ لتعدد الخصوصيات في الأعصار و تنوّع المختصات في الأمصار فالثابت المشترک لما هو الثابت المشترک و المتغيّر المختص لما هو المتغيّر المخصوص.

المقدمة الرابعة: إنّ كيان الدين و اصول الاخلاق و قواعد الفقه و الحقوق و ما الى ذلک من الاحكام و الحِكم مخلوق لله وحده و صادر منه و لا غير و لا شريک لله سبحانه في تأسيس الاصول و تشريع الشرائع و المناهج و انّ معرفة الدين و سائر شئونه بالاصالة لا تتحقّق الاّ بالوحي للنبي صلى الله عليه وآله و بعد ذلک ينكشف لغير النبي صلى الله عليه وآله تارةً بالعقل البرهاني و اخرى بالنقل الموثوق به و ثالثةً بالجمع بينهما و من هنا يظهر انّ البشر بما هو بشر عادي لا بما انّ الله وهبه عقلاً كاشفاً لما يحكم به الله لا حكم له يُعتدّ به أبداً، ولا قانون يعتمد عليه ابداً، ولا ركن يوثق به بتاتاً، لان البشر المنقطع عن العقل الموهوب له الكاشف عمّا أنزل الله معزول الحكم رأساً حيث انّ الله اخرجه من بطن امه و هو لا يعلم شيئاً كما انّ من البشر من يبلغ ارذل العمر و لا يعلم من بعد علمٍ شيئاً فهو أيّ البشر العادي محفوف بالجهلين كما انه نفسه محفوف بالعدمين حيث انه لم يک شيئاً قبل الخلق و لا يكون شيئاً بعد الفناء إذ لا بقاء الاّ لوجهه تعالى شأنه فالبشر ـ العادي الذي لم يوهَبْ العقل الكاشف عمّا أنزل الله سبحانه ـ لا معرفة له أبداً، فكما انّه لا حكم إلاّ لله فكذلک لا معرفة الاّ لله تعالى و المائز بين وجود الدين و ناموس الخُلق و ما الى ذلک و بين معرفة الدين و كشف الاخلاق و نحو ذلک هو أنّ الاوّل أي تأسيس قواعد الدين و تدوين اصول الاخلاق و تمهيد الطريق الى الهدف السامي مختص به تعالى و لم يجعل لغيره فيه نصيباً و أنّ الثاني أيّ معرفة تلک القواعد الدينية و هذه الاصول الخُلقيّة فهو له تعالى اوّلاً و بالذات و يهبه الله سبحانه بالوحي للانبياء و المرسلين ثانياً و لغيرهم بالعقل البرهاني أو النقل الموثوق

به ثالثاً.

و بعد اتّضاح تلک الاصول الهامّة في طي هذه المقدّمات يمكن القول بأنّ هويّة الانسان ليست تلک الدارجة على الألسن و الكتب من انه حيوان ناطق بل ما هو الاّ كائن حي متألّهٌ فأي علمٍ صائبٍ و خُلُقٍ صاعدٍ و عملٍ صالحٍ يُوجِبُ تألّهَه و توغّلَه في معرفة الله و اسمائه الحسنى و صفاته العليا يستلزم حياته حتى يصير مظهراً للحي الذي لايموت و أي اعتقادٍ و وصفٍ وعملٍ طالحٍ يوجبُ الحادَه و توغّلَه في الايمان بما لم ينزل الله عليه من سلطانٍ عقلي أو نقلي يستلزم موته حتى يصير ميّت الاحياء لانّ حياة الروح بالمعرفة الصائبة و الايمان الواصب الخالص ومماته بالجهل العلمي و الجهالة العمليّة. و حيث إنّ الانسان مؤلّف من روح مجرد ثابت و هو الاصل في هويّته و من بدنٍ مادي متغيّرٍ و هو الفرع فيها فكماله الخُلُقي انّما هو في معرفة ما هو الاصل في هويّته و ما هو الفرع فيها اوّلاً و ما ينبغي له لجهة روحه و بدنه ثانياً و ما هو المسلک الصحيح لنيل كماله الروحي و البدني ثالثاً و ما هو الهدف السامي و المقصد النهائي لذلک المسلک السليم رابعاً و ما هو الموجب و المقتضي و السبب و الشرط لذلک و ما هو الدافع و الرافع و المانع و الضارّ خامساً. و لنُشر الى نَزْرٍ من ذلک و نقول انَّ الانسانَ لا ينعدم بالموت لانّه كادح الى ربّه كدحاً فيلاقيه، لانه يذوق الموت لا انّ الموت يذوقه حيث قال الله سبحانه: ﴿**كُلُّ نَفسٍ ذائقَةُ المَوت**﴾ (سورهٔ آل عمران، آيهٔ ۱۸۵) لا اَنّ كل نفسٍ يذوقها الموت فالموت مذوق و مهضوم و مضمحلّ و فانٍ رأساً و الانسان الذائق له هاضم و باقٍ لانه مهاجر الى ربه و منتقل من دارٍ الى دارٍ حتى ينتهي الى دار القرار التي لا انتقال منها الى غيرها ابداً فهذا الموجود الذي لايتطرق اليه النفاد و لاينسحب عليه العدم لابدّ له من زادٍ يتزوّد به و منه و ليس ذلک إلاّ كماله العلمي و جماله العملي المبحوث عنهما في الحكمتين العلميّة و العملية. فالخُلق يُفيد العملَ ما استفاده هو من العقيدة الحاصلة من المعرفة و الإيمان و هو امر مجرّد ثابت لانه زاد الروح المجرّد الذي لا زوال له بإذن الله سبحانه فالحي المتألّه أي الانسان بما انّه انسان يخاطبه الله بهذه الصفة، لا يرى الموت الاّ قنطرةً يعبر بها من الدنيا الى الآخرة، و حيث إنّه مربوب لله سبحانه و مُلْهَم بما الهمه من الفجور و التقوى يسلک في معرفة الحقائق مسلک الحسّ و التجربة لما ثبت له أنّه: مَن فَقَد حساً فَقَدَ عِلماً، أي عِلماً مستفاداً من ذلک المسلک و يَسْلک ايضاً في معرفتها مسلک العقل و التجريد لما ثبت له: انّ العلوم المتعارفة التي تبتني عليها الآراء النظريّة هي (الاسس) للمعارف العقلية

مضافاً الى استناد التجربة بالتجريد و انه لولا مبدأ التناقض الذي يناله العقل التجريدي لا الحسّ التجربي لما امكن الاستدلال بالتجربة اصلاً، و يَسْلك ايضاً في معرفة تلك الحقائق مسلك القلب و التزكية لما ثبت له انّه: من فَقَد تقوى فَقَدَ شهوداً خاصاً مستفاداً منه كما قال الله سبحانه: ﴿**ان تَتَّقوا اللهَ يَجعَل لَكُم فُرقانًا**﴾ (سورهٔ انفال، آيهٔ ٢٩) فالنور الفارق بين الحق و الباطل و المائز بين الصدق و الكذب و الفاصل بين الخير و الشر و الحكم بين الحَسَن و القبيح و الحاجز بين الطيّب و الخبيث انّما يشتعل و يتوقّد و يتلألأ من مصباح التقوى و مشكاته و سراجه فهذه هي طرق معرفة الحقائق و مسالكها التي اَسَّسها الدين الالهي الموحىٰ الى الانبياء عليهم السلام المستكشف لغيره بالعقل تارةً و بالنقل اخرى. و الذي يتحصل من هذه المسالك و المناهج أمورٌ نأتي على بعضها و هو انّ للانسان بما هو انسانٌ حياةً يترتب عليها آثارها المطلوبة من الرُقي و الصعود الى الصَمَد الحق الذي ليس كمثله شيء بالتقرب من ثوابه والابتهاج برحمته و الالتذاذ بنعمته، و موتاً لا يترتّب عليه شيءٌ من تلك المآثر المرغوب فيها و هكذا له صحةً و مرضاً و استقامةً و اعوجاجاً. فالحي المتألّه أي الانسان بما انّه انسان لدي الله و رسوله و ملائكته و اوليائه المقرّبين يستجيب دعوة الله و رسوله لما يُحْييه اي يجيب أمرَ الله و رسوله و يمتثل احكامه و يجتنب مناهيه حتى يحيي حياةً طيّبة لها بركات خاصة و يصحّ و يسلَم من أي مرضٍ بيّنه الله في كتابه بدءاً بمَرَضِ الالحاد و الشرك و الكفر و النفاق كما قال سبحانه: ﴿**فى قُلوبِهم مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضًا**﴾ (سورهٔ بقره، آيهٔ ١٠) مروراً بمَرَضِ السياسة المشؤومة و النزوع الى اهل الضلال و الكفر كما قال تعالى: ﴿**فَتَرَى الَّذينَ فى قُلوبِهم مَرَضٌ يُسارِعونَ فيهِم يَقولونَ نَخشىٰ اَن تُصيبَنا دائرَةٌ فَعَسَى اللهُ اَن يَأتىَ بِالفَتحِ اَو اَمرٍ مِن عِندِه فَيُصبِحوا عَلىٰ ما اَسَرّوا فى اَنفُسِهِم نادِمين**﴾ (سورهٔ مائده، آيهٔ ٥٢) وصولاً إلى مرض الطَمَع و كل ما ينافي العفاف كما قال الله سبحانه:... ﴿**فَلا تَخضَعنَ بِالقَولِ فَيَطمَعَ الَّذى فى قَلبِه مَرَضٌ و قُلنَ قَولاً مَعروفا**﴾. (سورهٔ احزاب، آيهٔ ٣٢) اذ الوحي شافٍ بإذن الله و القرآن شفاءٌ بإذنه كما قال الله سبحانه: ﴿**قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم و شِفاءٌ لِما فِى الصُّدور**﴾ (سورهٔ يونس، آيهٔ ٥٧) و قال تعالى: ﴿**و نُنَزِّلُ مِنَ القُرءانِ ما هُوَ شِفاءٌ و رَحمَةٌ لِلمُؤمِنين**﴾ (سورهٔ اسراء، آيهٔ ٨٢) ولا مريةَ في أنّ مرض الصدر أضرّ من مرض البدن كما قال علي بن ابي‌طالب عليه السلام: ألا و أن من البلاء الفاقة، و اشدّ من الفاقة مَرَض البدن و اشدّ من مرض البدن مرض القلب (نهج البلاغه، حكمت ٣٨١) فالخُلق السَيء مرضٌ روحي و لعلاجه دواء بَيّنَه الشرع المكشوف بالعقل البرهاني و النقل الموثوق به و للدّواء شفاء افاده كذلك و بعد الشفاء رحمة خاصّة لمن

استشفي بالقرآن كما هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿... و رَحمَةٌ لِلمُؤمِنين﴾ (سورهٔ اسراء، آیـهٔ ۸۲) فإذا عرف الانسان نفسه بإنه موجودٌ رابطٌ لا استقلال له اصلاً و هو عين الربط الى الموجود المستقل الغني عمّا سواه الى الله سبحانه فهو ممن عرف نفسه فعـرف ربّـه و حيـث إنّ الله مَوجودٌ بَحتٌ لا مجال للعدم اليه، مطلقٌ لا قيد معه، صرفٌ لا شوب فيه، حقٌ لا باطل ايـاه، بسيطٌ لا تركيب فيه يعرف هو انّ جميع ما سواه مرايا وجوده و مرائي ظهوره فلا يرى لغيـره استقلالاً بل يرى الكل مفتقراً الى الله و متوكلاً عليه و صائراً اياه و واثقاً بـه فهـو أي الحـي المتأله لا يعتمد على نفسه و لا على غير الله لاستواء الكـلّ فـي الـربط اليـه و الافتقـار و الالتجاء به فلا يعبد الاّ ايّاه و لا يظلـم اَحـداً و لا يـستعمر و لا يـستثمر و لا يـستعبد و لا يستحمر بشراً لان الناس كلهم عند هذا الموحّد الكامل المتخلق بالتوحيد المتأدب بآدابـه سواسية كاسنان المشط كما أنّ جميع الحالات عنده سواء لان الله سـبحانه عـالم الغيـب و الشهادة، عليم السرّ و العلن، خبير الخبيئـة و الطليعـة، بـصير التليـد و الطـارف، مطّلـع السالف و الآنف و شاهد الغابر و القادم فلا يكتم شيئاً، لمعرفته بانّ الله عليم بذات الصدر فضلاً عن نفس الصدر و لعلمه بانه سبحانه يخرج ضغن أي ضغنٍ كما قـال سـبحانه: ﴿اَم حَسِبَ الَّذينَ فى قُلوبِهم مَرَضٌ اَن لَن يُخرِجَ اللهُ اَضغـٰنَهُم﴾ (سورهٔ محمدﷺ، آیـهٔ ۲۹) فهـو أي الحـي المتألّه يختلي بنفسه وحده موحّداً و يعيش مع اهل بيتـه متّحـداً موحّـداً و مـع اهـل بلـده مُجتمعاً موحّداً فيتجلّى التوحيد في نفسه و بيته و بيئته و تمدّنه و تديّنه لان تمدّنه لـيس الاّ تديّنه بالدين الالهي وتخلّقه ليس الاّ ائتساءً بالخُلق النَّبَوي العظيم و استنانه ليس الاّ اتباعاً لسنّتهﷺ و تَسَيَّره ليس الاّ تأسّياً بسيرتهﷺ و حيث إنّ للانـسان وهـو الحـي المتألّـه مادام سالكاً سبيل الحقّ القويم عدواً مُبيناً يريد ان يَـصُدّه عنـه و يـصرفه الـى غيـره و هـو الشيطان و عدّواً آخر هو اعدى أعدائه و هو نفسه التي بين جنبيه لانها تُسَوّلُ له الباطل حقّاً و القبيحَ حَسَناً و تأمره بالسوء و تنهاه عن الحُسن فلابدّ له ان يجاهد عدوّه و يغلب عليه و لا أقلّ من أن لا يُسَلّم لديه و لا يخضع عنده و حيث إنّ ذلک العدوّ المبين يرى الانسان من حيث لايراه هو: ﴿اِنَّهُ يَرٰكُم هُوَ و قَبيلُهُ مِن حَيثُ لا تَرَونَهُم﴾ (سورهٔ اعراف، آیهٔ ۲۷) فلا محيص له أي للانسان المتألّه من ان يتحصّن بحصن حـصينٍ يـرى ابلـيس صـاحبُ الحـصْنِ و لا يـراه ابليس، لانّ الله سبحانه يرى ابليس من حيث لا يراه هو لانه أي ابليس لايرى الاّ نفسه و لذا قال: ﴿اَنا خَيرٌ منه﴾ (سورهٔ اعراف، آیـهٔ ۱۲) و هذا المعني أي التحصّن بحصن الله سـبحانه حتـى يصير مصوناً عن رؤية ابليس هو ذكر الله الذي اُمِر الانسان بأصله تـارةً و بكثرتـه اخـرى و

بعدم التهاون و التسامح و التساهل و الادهان و الايهان فيه ثالثةً حيث قال الله سبحانه ﴿فَاذكُرونى اَذكُركُم﴾ (سورۀ بقره، آيۀ ۱۵۲) و قال تعالى: ﴿...اذكُرُوا اللهَ ذكرًا كَثيرا﴾ (سورۀ احزاب، آيۀ ۴۱) و قال سبحانه: ﴿و لا تَنيا فى ذِكرى﴾ (سورۀ طه، آيۀ ۴۲) و عدم الضعف في الذكر يقرب القوّة فيه كما قال سبحانه في كيفية أخذ الكتاب الالهي الذي هو عصارة الدين: ﴿يـٰيَحيىٰ خُذِ الكتـٰبَ بقُوَّة﴾ (سورۀ مريم، آيۀ ۱۲)، ﴿خُذوا ما ءاتَينـٰكُم بِقُوَّة﴾ (سورۀ بقره، آيۀ ۶۳) و يُشْبِهُهُ بوجهٍ قوله تعالى: ﴿و اَعِدّوا لَهُم مَا استَطَعتُم من قُوَّة﴾ (سورۀ انفال، آيۀ ۶۰) إذ المراد من القوة هنا هو قوة القلوب و الابدان معاً حيث فسّره بعض ائمة اهل البيت عليهم السلام بذلك لاخصوص قوة الابدان (بحار الانوار، ج۶۷، ص ۲۰۹) فتبيّن في هذه الوجيزة أنّ الانسان الحقيقي هو الحي المتألّه و انّ هويّته المتألّهة ثابتةٌ عَبر التاريخ لا يبليها شيءٌ فلن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً و اَنّ خُلقَهُ الحَسَن هو توغّله في تألّهه فلا يقوم و لا يقعد الاّ بما اراه الله سبحانه و رآه هو بعقله البرهاني أو نقله الموثوق به و اَنّ العدل و الحُرِّية و الاستقلال و ما الى ذلک من الكمال الفردي و الجمعي مُحدَّدٌ مضبوطٌ بما حدّده الشرع و ضَبَطَه الوحي و كشف ذلک المشروعَ و المضبوطَ الدليلُ العقلي أو النقلي و أنّ الركنَ الوحيد لحقوق البشر و المنبع الفريد لاستنباط مبادئها منه هو ما قرّره الخالق الذي اليه يكون مآب البشر و مصيره كما أنّه تعالى هو منطلق بداية البشر و نشره فالمرجوّ منه تعالى ان يوفقنا و ايّاكم لما يحبُّ و يَرضى و ان يحفظ الاسلام و المسلمين اينما كان و كانوا.

منابع

قرآن کریم.

نهج البلاغه.

مجلسی، محمدباقر، (۱۴۰۴ق)، **بحار الانوار**، بیروت: مؤسسة الوفاء.

* * *